

وصول الدكتور "رمضان"

ذات يوم من أيام آذار/ مارس ١٩٥٦، كان "غرهارد كيغل" أستاذ القانون يعقد إحدى "ساعاته المكتبية" الأسبوعية لذلك اليوم، وذلك بمكتبه بجامعة "كولونيا" الألمانية ... حين تقدم إلى باب المكتب رجل مهنتم قصير القامة يلتمس نصحا بشأن أطروحته للدكتوراه.

وبعد السؤال عن التعليم الذى أحرزه الرجل، وافق "كيغل" على طلبه. أما الرجل، فكان "سعيد رمضان" الذى قدم نفسه إلى "كيغل" بأنه محام قاهرى وقد إلى أوروبا لدراسة القانون. وكان "كيغل" كريما معه، إذ عرف كأستاذ لا يخذل أحدا مطلقا لجأ إليه طالبا للمشورة، وبخاصة الطلبة الأجانب. وكان "كيغل" يشرف - فى المتوسط - على سبعة طلبية دكتوراه فى العام، حيث بلغ عدد من التجأ إليه للمشورة والنصيحة نحو ٤٥٠ طالب على امتداد مسيرته المهنية الطويلة. أما الجامعات الألمانية فلم تكن تشترط - عادة - عملاً بحثياً تمهيدياً للدكتوراه ... لذا، فما كان على المرء المتقدم لنيل درجة الدكتوراه إلا أن يكون حاصلا على درجة الماجستير أو ما يعادلها.

فى البداية، كانت لقاءات "رمضان" مع "كيغل" محدودة. وكان "رمضان" - الذى لم يكن حينها قد بلغ الثلاثين بعد - يبدو أكثر نضجا من كثير من طلبية "كيغل".

وكان مدركا ما أراد الكتابة عنه تحديدا ... "الشريعة الإسلامية"، حيث شرع في الأمر بحيوية ونشاط.

وعادة ما كان "رمضان" على سفر ... لذا، فقد خاله "كيغل" يعد الترتيبات لانتقاله النهائي للعيش في أوروبا. وكان "رمضان" يطلع على تحركاته هنا وهناك حيث كان يبعث إليه بخطابات وكروت "بريدية" من جنيف ودمشق والقدس ... إلخ. وبمضى الوقت، أدرك "كيغل" - ذلك الأستاذ الجامعي الدمث حلو المعشر - أن دافع "رمضان" الحقيقي لم يكن "الشريعة الإسلامية"، بل ... "الثورة".

لقد كان القرن التاسع عشر قرنا مأساويا للسواد الأعظم من بلدان العالم غير الغربي ... حيث غزا العديد من البلدان الغربية المسلحة باقتصاد قوى وأنظمة سياسية متطورة أراضى شاسعة من العالم وأخضعتها لسيطرتها. أما الشعوب

التي اعتبرت نفسها ذات يوم أكثر الشعوب تقدما وتحضرا على امتداد المعمورة، فسرعان ما اندحرت تحت وطأة قوة "الغرب" الحربية. فمن أقصى الشرق فى الصين إلى أقصى الغرب فى بلدان المغرب العربى، تم احتلال العديد من البلدان حيث أطيح بحكامها وأخضع رعاياها للحكم الأجنبى، إلا أن بلدان العالم الإسلامى كانت أكثر من ذاق ذل الاستعمار ووطنه ... العالم الإسلامى، ذلك العالم صاحب منارات الحضارة الساطعة التى تعود إلى القرن السابع الميلادى، حيث بسط الفاتحون العرب، تؤيدهم روح الإسلام، نفوذهم على امتداد البسيطة. أما الدين الجديد، فقد انتشر سريعا ليخلق ممالك احتضنت فلاسفة عظماء وعلماء وفنانين نابهين. إلا أنه ومع بواكير القرن العشرين، كان العالم الإسلامى - فى معظمه - رازحاً تحت حكم غير المسلمين ... فالنصارى قد بسطوا نفوذهم فى كل مكان، فتارة هم الإنكليز فى شبه القارة الهندية، وتارة هم الهولنديون فى إندونيسيا، وأخرى هم الفرنسيون فى شمال إفريقيا. ووحدها تركيا التى ظلت بمنأى عن الاحتلال إذ كانت مستقلة، إلا أن دولة الخلافة الإسلامية كانت قد أسقطت بها لتنتهج تركيا نهجا علمانيا سافرا.

وفى سعيهم لإدراك الأسباب التى أفضت إلى ذلك التدهور، خلص المسلمون إلى احتمالين اثنين ... أن النصارى قد توصلوا إلى أنظمة سياسية واقتصادية فاعلة لم تكن - بحال - لدى المسلمين، أو أن تكون التعاليم الإسلامية الحققة لا يتم تطبيقها من قبل المسلمين. ووحده الاحتمال الثانى هو الاحتمال المنطقى لدى كثير من المسلمين. لذا، فقد بذلت جهود لمعرفة كيف انحرف المسلمون عن جادة الصواب وتكبووا الصراط المستقيم. أجل ... قد يكون الغرب أدخل تقنيات نافعة ومفيدة، إلا أن "أيديولوجيته" بات لزاما أن ترفض ... تلك الرؤية التى تبناها كثير من المسلمين وشاركهم إياها بعض من شعوب أخرى. ففى الصين - على سبيل المثال - دعت

"حركة التعزيز الذاتي"^{٧٣} إلى استدامة الوفاء لمناهج الفكر الصينى وأنظمتها بالتوازي مع تبنى التقنيات الغربية، لا سيما الأسلحة والعتاد. إلا أن السياق الثقافى الذى انبثقت فى ثناياه تلكم التقنيات، فلم يتناول بالدراسة، ولم تتطرق إليه يد البحث... ويقصد بالسياق الثقافى - ماهية الإطار الثقافى وحركاته تلك التى أحاطت بمواد تلك التقنيات، فضلا عما يوحيه بشأن العلاقة بين الفرد والسلطة الحاكمة، سياسية كانت أم دينية.

وفى القرن التاسع عشر، شرع العالم الإسلامى يدخل فى صراع حول تلك الأفكار. ففى بواكير القرن المذكور عمد بعض الباحثين والمثقفين من أمثال رفاة رافع الطهطاوى المصرى إلى الاشتباك مع الأفكار الغربية عن طريق تعريب الكتب والحض على إرساء وعى قومى وتثبيت أركان ذلك الوعى... وهو ما مهد السبيل أمام الزخم السياسى والدينى الأكثر انفتاحا لرموز من أمثال الإمام جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده - اللذين أصدرتا جريدة دعت إلى العودة إلى المبادئ الإسلامية الأصيلة^{٧٤}. ثم التقط ذلك الفكر جيل تال من الرجال من أمثال محمد رشيد رضا، الذى عزا ضعف العالم الإسلامى إلى جمود طبقة المثقفين وإخفاق المسلمين فى التمسك بأهداف التعاليم الإسلامية الحقة. وقد أصدر رشيد رضا مجلة ذاع صيتها فى أوائل القرن العشرين، إذ كانت مصدر إلهام للعديد من أبرز النشطاء السياسيين^{٧٥}.

وحين أخذ القرن العشرون يغذ السير، انبثق مزيد من برامج سياسية أخرى عدت أكثر سفورا. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نعت الحركة الوليدة بالإسلاموية، فيما أطلقوا على معتنقيها لفظة "الإسلامويين". ووفقا لذلك النهج الفكرى، فإن "الإسلامويين" يختلفون عن المسلمين التقليديين... إذ يذهب الإسلامويون إلى توظيف الدين لخدمة أجنداتهم السياسية، إما عن طريق اقتراب ديمقراطى أو من

خلال اللجوء إلى العنف، أما الأتباع فمدفوعون بقضايا معينة مرتبطة بالإسلام مثل الحاجة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في مجتمعاتهم. أما "الإسلاموية"، فيكمن في طياتها رفض للمجتمعات الغربية وقيمها - والتي ينظر إليها على كونها لا تتوافق ومقتضيات الدين الإسلامي. هذا، ويركز بعض المحللين السياسيين إلى تفضيل مصطلح "الإسلام السياسي" لنعته هذه الظاهرة.

إلا أن مفهوم "الإسلاموية" يعد مفهوماً خلافياً ذا طبيعة جدالية كونه ينطوي على أن الإسلام - في بواكير نشأته وتطور مسيرته - لم يكن مسيئاً أو سياسياً. إلا أن الواقع الفعلي هو أن الإسلام، منذ إرهاباته الباكرة، كان ديناً ذا صبغة جامعة مانعة لم يتعارض قط والسلطة الدنيوية. كذا، فإن مصطلح "الإسلاموي" لذو إحياءات ودلالات سلبية نظراً لاستخدامه عقب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ من اعتداءات وتفجيرات في كل من نيويورك وواشنطن - رديفاً لكل ما هو إرهابي.

أما إسلام القرن العشرين، فكان المعين الثرى للكثير من الرزخم السياسي. فالنشطاء السياسيون عابرو القوميات ممن يزعمون بأنهم سدنة الدين الحق قد سعوا لفرض "نسختهم" من الإسلام على مسلمين ذوي جذور في موقع بعينه قد تعارفوا، بمضى الزمن، على ممارسات وطقوس دينية مميزة. ومن ثم ما شاع من لباس بعينه، وحجاب للمرأة، والتضييق على تداول الموسيقى الغربية، وتحجيم دور المرأة في المجتمع. وعادة ما يعمد أولئك النشطاء إلى التفسير الحرفي للقرآن ... وهو نهج يتغافل تلك الجدالات القانونية المعقدة التي تدولت فيما بين الباحثين الإسلاميين على امتداد عقود وقرون. وبالمقابل، فقد خلص أولئك النشطاء إلى فكرة مستحدثة مفادها أن المرء - أيأ من كان - بوسعه فهم القرآن وإدراك معانيه، لذا فإن طائفة الشراح التقليديين تضحى غير ذات موضوع إذ تفقد معناها، بل قد

تصبح ضارة ذات أثر تدميري بغرض. ومن جهة أخرى، يرفض الاتجاه المذكور أفكارا حديثة أخرى، من أمثال النظر بعين الاعتبار إلى السياق التاريخي حين التصدى لتأويل نصوص قديمة. ويمثل ما يذهب كثير من الملتزمين بحرفية النصوص، فإن النشطاء الإسلاميين المعاصرين يعدون من قبيل التجديف والهرطقة ما يزعم من أن أحكاما بعينها كانت ذات اعتبار ووجاهة حين أنزل القرآن، إلا أنها - اليوم - تعد هامشية فيما يخص رسالته الرئيسية.

أما التنظيم السياسي الأكثر نفوذا، والخارج من عباءة ذلك النهج الفكري، فهو حركة "الإخوان المسلمين"، والتي أسسها "حسن البنا" في عام ١٩٢٨ ... وهو مدرس من مدينة المحمودية بمحافظة البحيرة. آنذاك، كانت مصر ما تزال خاضعة للحكم الكولونيالي البريطاني، إلا أنها كانت تواكب حركة العصر سراما لتلحق بركب قطار التحديث و"العصرنة"، حيث عانت ظروفًا اقتصادية واجتماعية قاسية عصبية. أما القاهرة، فكانت قد شرعت تجارى موجة "التصنيع" السائدة، حيث شرع الفلاحون ينزحون من الريف إلى المدن ليواكب ذلك تفسخ فى التقاليد، إذ كانت الأعراف تمور مورا. هذا، وقد وقف "حسن البنا"، الذى كان يلتهم مجلة "المنار" التهاما مشدوها من هذا المزيج من القمع القومى والحراك الاجتماعى ذى الوتيرة المتنامية. لذا، فقد شرع "البنا" ينظم أفكاره ويدون بعض أفكار ورؤى خاصة به. وقد كانت كتابات "البنا" هجوما ضاريا على الوجود البريطانى فى مصر، كذا فقد كانت هجوما على اللاأخلاقيات والفكر المنفلت، وبخاصة تلك الأنماط التى فشلت فى عاصمة البلاد. وقد كان الحل لدى "البنا"، كما كان لدى المثقفين ممن سبقوه من أمثال "رشيد رضا"، يكمن فى الإسلام. إلا أن ما جعل "البنا" فريدا ... كونه ناشطا سياسيا يخاطب عامة المصريين من البسطاء ... إذ كان خطابه "شعبيا". هذا، ولم يكن أعضاء تنظيم "الإخوان المسلمين" يرون لأن

يصبحوا مثقفين على غرار جماعة علماء المسلمين، بل كان لهم جذور شعبية بأكثر مما كان لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، أو رشيد رضا. فعادة ما كان أعضاء التنظيم يرتدون لباسا غربيا، ويتسمون بخطاب عصرى يعمدون فيه إلى عبارات بسيطة وكلمات واضحة مبتعدين عن العبارات النمطية لخطاب العلماء التقليديين. إلا أن الأهم من ذلك قد تمثل فى إرسائهم لمنظمات غربية الطابع كالأحزاب السياسية، وجماعات الشباب (الطلائع)، والجماعات النسوية، والأجنحة شبه العسكرية. لقد أضحى للإخوان المسلمين دولة داخل الدولة، إذ كان بمقدورهم توفير ما عجزت الحكومة عن الاضطلاع به، الأمر الذى أتاح لهم قبولا وذبوعا فيما بين المنتمين للطبقة الوسطى فى العالم الإسلامى ... تلك الطبقة التى كان نجمها صاعدا آنذاك. كذا، فقد كان الإخوان المسلمون لسان حال الفقراء إلا أنهم كانوا دائما ما ينتقون زعاماتهم من طبقة "المتعلمين" المحبطة جراء إفقار البلاد والعباد الذين سيموا الخسف على أيدي البلدان الغربية، وبما أنه لا عرق يحده ولا جنسية، فقد امتد نفوذ التنظيم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ... من بلدان جنوب شرقى آسيا إلى بلدان الشمال الإفريقي.

"لم يكن الشيخ البنا كغيره من الشيوخ" ... هكذا استدعى محمد فريد عبد الخالق^{٧٦} ذكرى مؤسس جماعة "الإخوان المسلمين"، وذلك فى لقاء جمعنى به فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة. واستطرد "عبد الخالق" قائلا: "إن البنا كان يصف الإسلام وصفا جديدا". وكان "عبد الخالق" يختلف إلى مؤتمرات "البنا" الحاشدة فى صغريات المدن، ثم - لاحقا - فى القاهرة، حيث انضم إلى الجماعة فى بواكير نشأتها ليتراأس "قسم الطلبة" عام ١٩٤٢، وينشط فى الهيئة التأسيسية عام ١٩٤٤، التى أضحى اسمها "مجلس شورى الجماعة" لاحقا. وقد كان ثمن هذا النشاط غاليا إذ أمضى "عبد الخالق" ١٢ عاما وراء قضبان السجون

المصرية. وقد سمع "عبد الخالق" الإمام "حسن البنا" في احتفال إسلامي بمدينة "إيتاي البارود" بمحافظة البحيرة حيث ذكر أنه "منذ سمع الإمام البنا في هذا الاحتفال تغير وجدانه وانقلب تفكيره حيث وجد ضالته في جماعة قربت المسافات بين الالتزام الديني والواجب السياسي، وفي رجل يقودها له طريقته التي تميزه عن مشايخ الدين وعلمائه، رغم أنه أحدهم، كذا فقد كان له أسلوبه السياسي المميز والخلاب الذي اختلف اختلافا شاملا عن كلام رجال الأحزاب والسياسة الذين تجمعهم المصالح وتفرقهم الواجبات".

أما منهج "البنا" في استمالة الآخرين وجذبهم إلى طريقته فتمثل في قيامه بتحديد مشكلة بعينها في مجتمع ما، ثم الشروع في إيجاد حلول لها. فالجماعة قد تساعد في بناء مسجد جديد أو مدرسة، أو قد تطور من صناعة محلية ... الأمر الذي يفضي إلى إقناع الآخرين بأن جماعته، جماعة "الإخوان المسلمين" هي تنظيم يسعى إلى إيجاد حلول لأية مشكلة، ويأن أفراد الجماعة هم أناس مخلصون أوفياء مكرسون لخدمة المجتمع. أما الأعضاء الجدد الذين يتم إلحاقهم بالجماعة، فكان يتم اختيارهم مباشرة من المساجد أو المقاهي والأسواق.

وما أشبه الليلة بالبارحة ... فكما اليوم، كانت السياسة - آنذاك - أمراً ذا حساسية في ربوع القطر المصري. لذا، كان "البنا" حريصاً على أن يطلق على جماعته لفظة حركة "الإخوان المسلمين"، متجنباً إطلاق صفة الحزبية عليها. إلا أنه أضحى شديد الانخراط في السياسة، حيث وقف في وجه الملكية التي كانت قد تواطأت مع المحتل البريطاني ... وهو الأمر الذي عجل بأول صدع في تاريخ الحركة، تحديداً في عام ١٩٢٩، حين عمدت جماعة "شباب محمد" ^{٧٧} إلى الانشقاق عن الحركة، إذ آمن أفراد تلك الجماعة المنشقة بأن "الإخوان المسلمين" يجب أن تكون جماعة رفاة خيرية ترفض "تسييس" الإسلام. أما جماعة "الإخوان المسلمين"

فقد شرعت - آنذاك - توأزر "جمال عبد الناصر"، الذى سيقوم - لاحقاً - وتحديداً فى الثالث والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٥٢، بالتعاون مع زمرة من ضباط أطلقوا على أنفسهم اسم "الضباط الأحرار" ... بانقلاب عسكري أطاح بالملكية فى مصر.

هذا، وقد ذهبت جماعة "الإخوان المسلمين" فى مصر أشواطاً بعيدة إلى الحد الذى قبلت معه أموالاً من العملاء النازيين. فوفقاً لمستندات تحصل عليها البريطانيون فى بواكير الحرب الكونية الثانية، فقد حصلت جماعة "الإخوان المسلمين" على مبلغ ألقى جنيه مصرى من الصحافى الألمانى "فيلهلم شتيلبوغن" - مدير وكالة الأنباء الألمانية والمقرب من الجالية الألمانية بالقاهرة. هذا، وقد استخدم هذا التمويل النازى فى تأسيس "التنظيم الخاص" لجماعة "الإخوان المسلمين"، وهو نظام تراتبى شبه عسكري ... فلم يكن مفهوم الجماعة الدينية ذات الجناح العسكري غريباً مطلقاً عند "حسن البنا"، إذ أظهرت "الجماعة" نفسها، منذ البداية، على أنها تنظيم شعبى يمكنه النزول إلى الشارع وحشد التظاهرات، بل والقيام بمناوشات قتالية.

وقد أمن "البنا" برسالة القرآن التى تذهب إلى أنه لا انفصال بين الدولة والدين، وهو ما وجد تعبيراً عنه فى شعار "الجماعة" الشهير: "الله غايتنا، الرسول قديوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا". ويصرح "البنا فى رسالة " بين الأمس واليوم": "إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: نحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام، نحن لا نعرف انفصال الدولة عن الدين".

وفى رسالة أخرى له يقول: "اسمع يا أخى: دعوتنا أجمع ما توصف به أنها

إسلامية، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذى يفهمه الناس، فإننا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شئون الحياة جميعا، ويفتى فى كل شأن منها، ويضع لها نظاما محكما دقيقا، ولا يقف مكتوفاً أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لا بد منها لإصلاح الناس. فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، وحصروا أنفسهم وأفهامهم فى هذه النواثر الضيقة من دوائر الفهم المحصور. ولكننا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شئون الدنيا والآخرة.

أما فى رسالة "نحن والسياسة"، فيقول "البناء": "إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون ودعوتهم دعوة سياسية، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى، ولا ندرى إلى متى تقارض أمتنا التهم وتتبادل الظنون وتتنازرن بالألقاب، وتترك يقينا يزيد الواقع فى سبيل ظن توحيه الشكوك؟

أيا قومنا: إننا نناديكم ... والقرآن فى يميننا، والسنة فى شمالنا، وعمل السلف الصالح من أبناء هذه الأمة قوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام ... فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا فنحن أعرق الناس والحمد لله فى السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن نضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

يا قومنا: لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق، ولا الأسماء عن الغايات، ولا الأعراض عن الجواهر، وإن الإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة. وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلا فسوسوا أنفسكم، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية، ولتعلمن نبأه بعد حين. والواقع أن غير المسلمين

حينما جهلوا هذا الإسلام، أو حينما أعيأهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه، ورسوخه فى قلوب المؤمنين به، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ... لم يحاولوا أن يجرحوا فى نفوس المسلمين اسم الإسلام ولا مظاهره وشكلياته، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشورا من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغنى من جوع ... فافهموا المسلمين أن الإسلام شىء والاجتماع شىء آخر، وإن الإسلام شىء والقانون شىء غيره، وإن الإسلام شىء ومسائل الاقتصاد لا تتصل به، وإن الإسلام شىء والثقافة العامة سواه، وإن الإسلام شىء يجب أن يكون بعيدا عن السياسة. فحدثنى بربكم أيها المسلمون إذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة، فما هو إذا؟! ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية: استغفار يحتاج إلى استغفار. لهذا أيها المسلمون نزل القرآن نظاما كاملا محكما مفصلا تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

إنه لقاء وعظى جرت وقائعه عام ١٩٤٠ ... حيث كان اللقاء مناسبة رأى فيها سعيد رمضان الإمام حسن البنا للمرة الأولى. وعقب كل تجمع كذلك المشار إليه، كان البنا يطلب إلى الحضور ارتقاء المنصة، وكأنما كيمين ولاء للجماعة. وبعد توالى خمسة لقاءات كتلك أو نحو ذلك، عزم سعيد رمضان على ارتقاء المنصة ... ذلك الفتى ذو الأربعة عشر ربيعا، آنذاك، والذي لم تكن قامته قد تجاوزت حدود المتر ونصف المتر إلا قليلا، وإن عوض ذلك جسم قوى البنيان صقلته ممارسة الرياضة وتدريبات المصارعة.

"بالله ماذا أخرك عنا؟" ... كانت تلك أولى كلمات الإمام له - الإمام الذى كان مدركاً طيلة كل ذلك الوقت أن المرء الذى سيرعاه ويتعهد له هو بين تلك الصفوف.

لذا، فما كان من الإمام سوى الانتظار حتى يتقدم من انتظره طويلا خطواته الأولى.

لقد كانت تلك قصة طالما حرص سعيد رمضان على أن يسردها على مسامع أصدقائه ومعاونيه. إن حسن البناء، وفقا لرمضان، عادة ما كان يتم النظر إليه على كونه رمزا سياسيا فحسب. لذا، كان رمضان يقول عنه إنه رجل ذو جانب صوفى روحانى فضلا عن جانبه السياسى، إذ كان حريصا على أن يرقد بالمقابر ليلة من كل شهر ليذكر نفسه بمصيره المحتوم. أما مريدو البناء ورمضان وأتباعهما فعادة ما كانوا يشددون على قوة الرجلين البدنية. إذ كان البناء يقود أعضاء الجماعة أثناء التدريبات الرياضية متبنيا في ذلك الأفكار الغربية الذاهبة إلى كون البدن والعقل على الدرجة ذاتها من الأهمية دون رجحان لكفة على الأخرى. أما رمضان ... بجسده النحيل وقامته القصيرة التى لم تتعد - وهو بالغ - حدود الـ ١٦٨ سم ... فكان يحظى باحترام جم، أعزى بعضه إلى بنيانه القوى ونشاطه الموفور. وأما عن قسامته، فكان ذا عظام فك بارزة قوية تحيطها لحية مشدبة، فيما كانت عيناه رقيقتين ذواتا عمق ... لذا، فدائما ما كان رمضان محور أحاديث عن جاذبيته وحضوره الطاغيين فى أى محفل شوهد به.

ووفقاً لداود صلاح الدين خلال مكالمة هاتفية أجريتها معه وهو فى العاصمة الإيرانية طهران فى الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ ... كان سعيد رمضان قويا للغاية من الناحية البدنية. وداود صلاح الدين هذا هو أمريكى من أصول إفريقية اعتنق الإسلام، كان قد التقى رمضان فى واشنطن فى عام ١٩٧٥ . واستطرد صلاح الدين ليقول: "إن ما جعلنى أشعر بمدى جاذبية رمضان هو أن المرء نادرا ما يرى أناسا ذوى مكانة ثقافية كذلك التى ميزت الرجل يتمتعون ببنية قوية وقوام رياضى. فرمضان كان بطلا رياضيا منذ نعومة أظفاره... كذا، فقد كان

يتمتع بكاريزما طاغية. أجل ... فحين تلقى شخصا بوسعه التحدث قائما لساعات ثلاث، فحتما سيكون صاحب قوة بدنية هائلة.

وكما كانت عادة مجاليه من نوى التوجه الغربى، كان سعيد رمضان غالبا ما يرتدى بزة غربية ورباط عنق محتفظا بلباسه العريى التقليدى لمناسبات بعينها. كذا، فإن حديثه قد اتسم بنفاذه إلى صلب الموضوع مباشرة ... فضلا عن حرصه الدائم على النظر إلى عيني محدثه.

وعقب لقاء رمضان بالبنا، أضحى الرجل ناشطا بجماعة "الإخوان المسلمين"، حيث أسهم فى تنظيم المؤتمرات الحاشدة. وكان رمضان قد درس القانون فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) التى تخرج فيها عام ١٩٤٦ ليصبح محاميا. وفى العام ذاته، اختاره حسن البنا ليكون سكرتيره الشخصى، كذا فقد زوجه كبرى بناته (أم أيمن). أما فريد عبد الخالق، فيقول عنه: "إنه كان خطيبا مفوها ذا كاريزما بادية ... إنه رجل المهام الصعبة".

أما الروايات الخاصة بنشاطه فى فلسطين فتتباين تبائنا جليا ... إذ ذهب البعض إلى القول بدوره المحورى الذى اضطلع به فى الدفاع عن القدس ضد قوات العدوان الإسرائيلى، فيما ذهب بعض آخر إلى أنه قد اضطلع فقط بتنظيم جناح لشباب الإخوان هناك. هذا، وقد كتب آخرون عن إنشائه لفرع جماعة الإخوان المسلمين فى الأردن، حيث أشرف على جهود الإخوان خلال حرب عام ١٩٤٨، فكان أن منحه ملكها، آنذاك، الملك عبد الله الأول جواز سفر استخدمه لسنوات طوال.

إلا أن النشاط السياسى المكثف لجماعة "الإخوان المسلمين" كان يعد تهديداً من قبل العديد من الحكومات، آنذاك. لذا، فقد قامت الحكومة المصرية بحظر الجماعة

عام ١٩٤٨ ليرتحل بعدها سعيد رمضان إلى باكستان الوليدة. وعقب عودة رمضان إلى مصر عام ١٩٤٩، تم اغتيال حسن البنا فى الثانى عشر من شباط/ فبراير. أما رمضان، الذى كان ما يزال صغيرا، حينذاك، لخلافة حميه الراحل، فقد استمر فى نهجه التنظيمى بالخارج.

وفى لقاء جمعنى بالأخ الأصغر للبنا - وهو جمال البنا - فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة، ذهب جمال إلى القول بأنه "إذا كان لدى جماعة الإخوان المسلمين هيكل وزارى قوامه وزراء عدة، لكان سعيد رمضان وزيرا للخارجية. لقد كان رمضان ذا لسان ذلق طلق، خطيبا مصقعا يجيد العربية ويتحدث الإنكليزية ... كذا، فقد كانت له علاقات واسعة ومعارف شتى بداخل البلاد وخارجها". هذا، وقد كان جل نشاط سعيد رمضان موجها نحو "التنظيم أو الاجتماع الإسلامى". ولم يكن الهدف ضربا من مصالحه مسكوتية أو توافق ثيولوجى فيما بين الفصائل الإسلامية المتناحرة على النوم ... بل كان، فى المقابل، هدفا سياسيا. فمن الوجهة النظرية، يجب أن يحكم المسلمين خليفة ... حاكم دنيوى يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية وإنفاذ مقتضياتها فى إطار ضرب من حكومة دنيوية. إن السلطان العثمانى وحيد الدين محمد السادس، آخر الخلفاء فى دولة الخلافة التى هوت ... كان مقر حكمه فى اسطنبول، إلا أنه قد خلع عن الحكم عام ١٩٢٤. ومنذ ذلك الحين، وإلى يومنا هذا، يرنو النشطاء الإسلاميون إلى إعادة دولة الخلافة كسابق عهدها.

وبدءا من عام ١٩٢٦، سعى النشطاء الإسلاميون إلى توحيد صفوف المسلمين تحت راية خلافة بديلة: من خلال إرساء الرابطة وعقد المؤتمرات. فإذا كان العالم الإسلامى بالغ التشتت لأن يوجد تحت قيادة زعيم فرد، فلا بأس - إذا - فى أن يشكل تجمع ممثل نوعا من هيكل مظلئ ينتظم الشتات ويربط الأصرة. ففى عام

١٩٤٩، كان كل من سعيد رمضان وأمين الحسيني، مفتي القدس، رأسى حربته لجهود رمت إلى إرساء هيكل كهذا، لينجحا - في عام ١٩٥١ - في عقد اجتماع لمؤتمر العالم الإسلامي ... حيث ترأس الحسيني الاجتماع، وذلك في العاصمة الباكستانية "كراتشي"، فيما انتخب رمضان كأحد ثلاثي سكرتارية الاجتماع، فما كان منه إلا أن عمد - من فوره - إلى مهاجمة حكومة تركيا العلمانية. كذا، فقد نشط رمضان مع الحسيني في منظمة المؤتمر الإسلامي.

إن الهدف الرئيسي الذي عمد سعيد رمضان إلى تحقيقه خلال تلك الاجتماعات قد تمثل في محاربة الشيوعية ... فعلى الرغم من أن البلدان الغربية كان ينظر إليها على أنها فاسدة ومذمومة الأخلاق، إلا أن البلدان الشيوعية كانت قد فرضت حظرا شديدا على الدين، حيث صادرت أي نشاط ديني وعمدت إلى تقييده بشدة ... الأمر الذي جعل تلك البلدان تفوق البلدان الغربية سوءا، ومن ثم أضحت هدف الإسلاميين الأول. هذا، وقد كان أمين الحسيني يجاهر بمعارضته للشيوعية. فوفقا لتقرير لوحدية الخدمات الاستراتيجية بوزارة الدفاع الأمريكية في عام ١٩٤٦، فإن "الحسيني كان قد بعث برسائل إلى أتباعه مذكرا إياهم بأن مبادئ الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الدين الإسلامي كما وردت في القرآن".

هذا، وقد تكرر ذلك المشهد في مراقبات وكالة الاستخبارات المركزية لأمين الحسيني، والذي عرف بأنه معاد للشيوعية ومناهض لها، ومن ثم كونه متوافقا والسياسة الأمريكية المناهضة للشيوعية ... إلا أن تاريخه "النازي" قد حال دون أن يصبح حليفا مقبولا للأمريكيين. أما سعيد رمضان فكان شأننا آخر.

كانت الجولة الأولى التي جمعت المسؤولين الأمريكيين بسعيد رمضان في صيف ١٩٥٣، إذ تلقى "البيت الأبيض" طلباً عاجلاً مفاده "قدوم إسلاميين بارزين إلى

جامعة برنستون لعقد مؤتمر إسلامي ... فهل للرئيس الأمريكي أن يلتقيهم؟ وفي البدء، فقد بدا تعذر حدوث لقاء كهذا نظرا لتغيب الرئيس الأمريكي "أيزنهاور" عن نيو جيرسي. إلا أن "آبوت ووشبورن" - نائب مدير الوكالة الأمريكية للمعلومات ومسئول الاتصال بالبيت الأبيض - كان قد أورد الأولوية التي يوليها "أيزنهاور" للدين في حياته الخاصة، وكذا في استراتيجيته الجيوسياسية. أما المناقشات الباكورة حول توظيف الدين على نحو أكثر فاعلية في السياسة الدولية، فكانت قد جرت بالفعل، إذ كان "إدوارد ليللي" قد أصدر للتو مذكرته ذات النفوذ الطاغى والمعنونة "العامل الديني"^{٧٨}. ورغمما عن كون الوثائق لم تبرز بجلاء ما إذا كان "وشبورن" قد أطلع على مذكرة "العامل الديني" أم لا، إلا أن الشعور العام كان واضحا جليا: يحب على الولايات المتحدة الأمريكية اقتناص فرصة كذلك.

لذا، فقد بعث "وشبورن" بمذكره إلى "تشارلز دوغلاس جاكسون"^{٧٩} - مايسترو الحرب السيكلوجية التي تبناها "أيزنهاور" - أبلغه فيها أن المؤتمر ممول من قبل الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، وجامعة برنستون، ومكتبة الكونغرس - أو كما شبهها "بحيلة رباعية الأبعاد للهيمنة على العالم الإسلامي". أما النتيجة المرجوة، وفقا لما كتبه "وشبورن"، فكانت "أن تترك القوة الأخلاقية والروحانية لأمريكا لدى المسلمين (الحضور) انطبعا إيجابيا ناجزا".

أما "البيت الأبيض" فكان مترددا، وأما "وشبورن" فقد عمد إلى محاولة أخيرة ... إذ أورد أن "أيزنهاور" كان مؤمنا بضرورة أن تبرز الولايات المتحدة الأمريكية تفوقها الروحاني على الاتحاد السوفييتي. وفي مذكرته إلى "تشارلز جاكسون"، أورد "وشبورن" أن "أولئك الذين أزمعوا عقد مؤتمر إسلامي يمكنهم ترك انطباع هائل بعيد المدى على التفكير الإسلامي، بل قد يفوق تأثيرهم طويل المدى تأثير

القادة السياسيين في بلادهم. وهنا وافق "البيت الأبيض" على انعقاد "المؤتمر الإسلامي"، وبعدها بثمانية أيام ... أخذت الدعوات إلى حضور المؤتمر تترى. كذا، فقد دون موعد اجتماع الرئيس "أيزنهاور" بأعضاء المؤتمر، في روزنامة أعماله: الثالث والعشرون من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣ - الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً. كذا، فقد تم تدوين اسم "سعيد رمضان" ... مندوب جماعة "الإخوان المسلمين".

وكما أوضح مسئولو "أيزنهاور"، فقد أريد بالاجتماع أن يكون تنمة للأهداف السياسية لمؤتمر "برنستون". هذا، ولم يكن جميع حضور المؤتمر من الباحثين ... لذا، فلم يقدم هؤلاء أبحاثاً أو أوراق عمل، إذ كان الهدف الرئيسى للمؤتمر إظهار احتفاء الولايات المتحدة الأمريكية بالمتقنين الإسلاميين. ووفقاً لمذكرة سرية أرسلت إلى وزير خارجية "أيزنهاور" ... "جون فوستر دالاس": "فقد بدأ المؤتمر - ظاهرياً - كممارسة ثقافية وتعليمية بحث، وهو الانطباع الذى أريد بالفعل أن يحققه المؤتمر. كذا، فقد روجت وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية - المؤتمر، وفقاً لهذا المنحى عن طريق توفير التمويل اللازم له، وكذا أية مساعدات أخرى ... وذلك لإيمان الولايات المتحدة بأن ذلك النهج السيكلوجى يعد إسهاماً هاماً لتحقيق الأهداف السياسية الأمريكية فى العالم الإسلامى، سواء فى الأجل القصير أو فى الأجل الطويل".

هذا، وقد أرفق بالمذكرة المشار إليها تحليل عن المؤتمر الوشيك. أما الأهداف، فكانت مهمتها الترويج للنهضة الإسلامية، حيث تعد جماعة "الإخوان المسلمين" الجماعة الأكثر نفوذاً ضمن عناصر تلك النهضة. والأمر المثير هنا أن التحليل قد ذهب إلى خطورة بعض الحضور المحتمل وجودهم فى المؤتمر - فوقاً لمقتضيات القانون، فإن وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية المخولة

بالترويج للتبادل الثقافى. أما جماعة الإخوان المسلمين ... ذلك الكيان السياسى الصريح السافر ... فلا تدخل ضمن مفهوم "الفعاليات الثقافية"، الأمر الذى جعل من الصعب أن تقوم وكالة المعلومات الدولية بتمويل مشاركة سعيد رمضان وزعماء سياسيين آخرين فى المؤتمر. ونظرا لأن برنامج التبادل الثقافى لا يحق له تمويل حضور أفراد بعينهم للمؤتمر، إذ سيكون حضور كهذا غير مرغوب فيه، لذا فمن المأمول أن تضطلع جهات أخرى بجانب صغير من المساعدة التمويلية. وهنا تقدمت جهات أخرى لتقديم العون المالى، من أمثال شركة "أرامكو" للنفط - والتي تكفلت بنفقات الانتقال، وكذا فقد شاركت وكالة المعلومات الدولية حيث تحملت نفقات انتقال أستاذين جامعيين بجامعة برنستون إلى الشرق الأوسط لدعوة المرشحين للحضور شخصيا.

وفى تموز/ يوليو ١٩٥٣، حين تم اختيار معظم المشاركين فى المؤتمر، خوطبت السفارة الأمريكية فى القاهرة حول ما إذا كان سعيد رمضان بمقدوره حضور ذلك المؤتمر، إذ كان رمضان راغبا فى زيارة بعض التجمعات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا، وقد بعثت السفارة بالطلب إلى واشنطن مرفقا به نسخة من سيرته الذاتية ومسيرته الوظيفية - بعد تهذيبهما ... ولتوصى السفارة بحضور رمضان.

وعلى مدار عشرة أيام هى عمر المؤتمر، قدم المتحدثون أبحاثا تناولت التعليم والشباب والفنون والإصلاح الاجتماعى. فإذا ما قارنا المؤتمر بمؤتمرات اليوم، لألفيناه ممتداً فسيحاً ذا وتيرة غير عجلية، إذ كان اليوم الواحد باكملة يخصص لفعاليتين أو ثلاث، بما أتاح وقتاً كبيراً لإجراء مناقشات مطولة عميقة، فضلا عن جلسات سمر وتعارف ضمت المشاركين فى المؤتمر الذى انتقلت أعماله من نيوجيرسى إلى العاصمة واشنطن لينتهى بقاء الرئيس "أيزنهاور" المشاركين، ومن

بينهم سعيد رمضان. أما الصور التي التقطت لفعاليات المؤتمر فكانت تجسيدا لخطوات ذلك العصر المترددة بشأن توظيف قوة الإسلام. هذا، وقد تعاقبت الاجتماعات على نحو سلس، واعتبر المؤتمر محرزا جزيلا نجاح وسداد.

إلا أن الشواهد قد أظهرت أن رمضان لن يكون حليفا سلسا لين العريكة. فوفقا لتحليل لوكالة الاستخبارات المركزية أجرتة عقب انقضاء المؤتمر، ظهر رمضان كمشاغب ومحرض سياسى. وقد أورد التحليل أن رمضان قد دعى تحت إلهام من السفارة المصرية فى الولايات المتحدة ... ذلك الرجل الذى مثل العنصر الأكثر صعوبة فى التعامل خلال وقائع المؤتمر نظرا لاهتمامه بالضغط السياسية لا المشكلات الثقافية". كذا، فوفقا للتحليل - نأى رمضان بنفسه عن الخوض فى ثمرات جانبية وابتعد عن الزج بنفسه فى سفاسف الأمور. فخلال تجمع بإحدى أمسيات المؤتمر، سئل رمضان ما إذا كان يتوجب عدم تشجيع الشبيبة المصرية على الانخراط فى العمل الاجتماعى، فكان رده "أن الأمر الوحيد الذى يلقى اهتماما كبيرا لدى تلك الشبيبة ينحصر فى طرد المحتل البريطانى عن البلاد". واستأنف محرر التحليل - الذى جاء فى صورة تقرير - بتقييمه الشخصى لسعيد رمضان، حيث قال: "لقد شعرت أن رمضان يتسم برجعية سياسية، حيث بدأ أقرب ما يكون لأن ينعت بكونه "كتائبيا" أو "فصائليا" ... أو لعله "فاشستى" التوجه. ولم يكن رمضان يبدو إسلاميا رجعيا بمثل ما تعلق الأمر بالشيوخ الثلاثة الذين كانوا حضورا بالمؤتمر. أجل ... إن رمضان قد بدأ فاشستيا يهتم بحشد الجماهير والأفراد بغية استجلاب القوة والنفوذ، كذا فلم يكن رمضان يبرز أية أفكار - أياً ما كانت - عدا تلك الخاصة بجماعة "الإخوان المسلمين".

إلا أن رمضان قد واصل الظهور فى المحافل الدبلوماسية الأمريكية ... ففى عام ١٩٥٦ التقى عددا من المسؤولين الأمريكيين بالعاصمة المغربية، "الرباط" مشدداً

على المطالبة بطرد اليهود من فلسطين. إلا أن توجهات كتك كانت حائلاً دون إرساء تحالف رسمي فيما بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن رغبة الطرفين المشتركة في مجابهة الشيوعية كانت واضحة جلية. لذا، قطع رمضان وزعماء آخرون بمنظمة المؤتمر الإسلامي عهداً على أنفسهم، عام ١٩٥٦، بشن حرب ضروس مناهضة للشيوعية، مشيرين إلى أن الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الإسلام ... على الرغم من تسليم رمضان بأنها ستكون تجارة بأثرة ... إذ إن حرباً كتك ستكون عصية على الترويج في إقليم الشرق الأوسط، حيث يؤمن أبناؤه بأن الشيوعية حركة معادية للغرب، ذلك الغرب الذي يعزو العرب إليه مسئولية إنشاء الكيان الإسرائيلي. كذا، فقد كانت هناك مشاكل وصعوبات واجهت رمضان على الصعيد الشخصي ... إذ اتخذ جمال عبد الناصر - عام ١٩٥٤ - إجراءات صارمة ضد جماعة "الإخوان المسلمين" في أعقاب محاولة فاشلة استهدفت اغتياله ... محاولة تم الزعم بأنها من تخطيط عناصر إخوانية. لذا، ارتحل رمضان إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى سوريا، فباكستان، فالأردن. هذا، وقد عمدت القاهرة إلى تجريد رمضان وحفنة من القيادات الإخوانية من حق المواطنة المصرية، ورمتهم بالخيانة العظمى. ونظراً لكون مصر، آنذاك، أقوى دول الإقليم نفوذاً، فلم ترغب معظم بلدان العالم في معاداتها. أما رمضان، فكان عليه أن يظل مرتحلاً. هذا، وقد قامت المملكة الأردنية الهاشمية، ربما عرفانا بجهود رمضان عام ١٩٤٨، بمنحه جواز سفر دبلوماسي، بل وأرسلته سفيراً شرفياً لها بألمانيا الغربية ... ثم، ربما بدافع من حرص أكاديمي أصيل، أو لعله ستار لأنشطة أخرى ... ألقى البروفيسور "كيغل" الرجل لدى الباب، على نحو ما ورد في مفتتح الفصل الحالي.

بعد انتضاء خمسة أشهر على قبول "كيغل" رمضان تلميذاً لديه ... تلقى

البروفيسور خطابا منه بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٦ ... خطابا ورد من دمشق كانت تعلقه كلمات ثلاث تصدرته: "مؤتمر العالم الإسلامي". وفي هذا الخطاب، الذي خطه رمضان بالإنكليزية، كتب يقول: "عزيزي البروفيسور كيغل، إنني بحاجة إلى المساعدة ... إذ لم أجد - إلى الآن - مادة جيدة تصلح للتناول بالطروحة. إن ثمة نزعة جديدة نحو الشريعة الإسلامية تجد طريقها في البلدان الإسلامية المستقلة حديثا ... وتأسيسا على ذلك، فما رأيكم في أطروحة تتناول، بالمقارنة، جهود تطبيق تلك الشريعة؟ والأمر معروض على سيادتكم للبت فيه بالإيجاب أو السلب".

أما "كيغل" فلم يكن واثقا كيف يجيب تلميذه. فالرجل البالغ من العمر - آنذاك - أربعة وأربعين عاما كان، تحقيقا، واحدا من أبرز العقليات القانونية في ألمانيا الغربية نظرا لأبحاثه ودراساته عن القانون المدني. ولكونه أكاديميا صارما، كان "كيغل" يشجع تلامذته على القيام بأبحاث تتناول مواضيع تقليدية، إذ رغب في أن يقوموا بالبحث في سجلات المحاكم، أو أي ضرب آخر من العمل "الإمبريقي"، ثم تعضيد أفكارهم بحواش مرفقة. إلا أن رمضان كان قد اقترح أمرا مغايرا بالكلية: دليل لتطبيق الشريعة الإسلامية. فإذا كان لرمضان أن يكون أكاديميا، فيجب أن تخضع أطروحته لتمحيص غاية في الدقة. أما "كيغل"، فقد نظر إلى اهتمامات تلميذه الشاب على أنها لا تعدو كونها "هواية" لا ترقى إلى مصاف البحث الأكاديمي الرصين ... بيد أنه كان معجبا بما اقترحه رمضان، لذا فقد أخبره بموافقته على موضوع الأطروحة.

- إلا أن رمضان، وفي نهايات عام ١٩٥٦، كان قد ارتحل ثانية إلى الشرق الأوسط - حيث أبقى لكيغل، في الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، يقول: "عشية مغادرتي أوروبا، شعرت بضرورة أن أعبر لسيادتكم عن امتناني الجزيل

لكم. إننى لن أنسى ما حييت استقبالكم لى بحفاوة وكرم، كذا فلن أنسى تلك الأوقات الرائعة التى أمضيتها فى كولونيا. هذا، وقد واصل رمضان إعداد أطروحته مرتحلا من بلد إلى آخر ... حيث عمل أмина لمؤتمر العالم الإسلامى. وفى الحادى والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٥٨، كتب رمضان لأستاذه قائلاً إن الأجواء العصبية للموقف المتداعى فى دمشق قد أجبره على إرسال أسرته إلى القدس. أما فى الثامن والعشرين من آب/ أغسطس من العام ذاته، فقد كتب يخبر أستاذه بتوجهه إلى الأراضى الحجازية خلال موسم الحج للقاء بعض المصريين، وهو ما أيد إيمان الاستخبارات المصرية بأن نفرا من الإخوان المسلمين بالمنفى قد التقوا خلال موسم الحج هذا، للتباحث حول استراتيجية يمكنهم تبنيها^{٨٠}.

وفى آب/ أغسطس المذكور، قرر سعيد رمضان العودة إلى جنيف. هذا، وقد بدا - آنذاك - أن المسئولين السويسريين لم ينتبهوا إلى كونه سيستقر هناك على نحو نهائى ... إلا أنهم قد تباحثوا - بعدها بسنوات قلائل - بشأن حقيقة كونه متخفياً فى جنيف ليخلصوا إلى أن الأمر يخالف القانون ... بيد أن قرارهم كان تركه يحيا بسويسرا نظرا لميوله القوية لمناهضة الشيوعية. أما رمضان، فقد أوضح - لاحقاً - أنه انتقل للعيش هناك نظرا لحاجة أحد أبنائه لتلقى خدمات علاجية بعينها.

وفيما كان عام ١٩٥٨ يمضى إلى أفول، كان رمضان قد فرغ من أطروحته. وفى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام، منحه "كيغل" درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ... حيث كتب تقریظا لتلميذه قال فيه: "إن واضح تلك الأطروحة لرجل جد قدير" ... ناعتا أطروحة رمضان بكونها عملا فاق أية أعمال سبق وأن أشرف عليها على امتداد الشرقين الأدنى والأوسط. إلا أن "كيغل" قد كتب أيضا فى تقييمه للأطروحة ... ذلك التقييم الوارد فى تقرير من صفحتين

اثنتين - أنها أطروحة غير اعتيادية، فهي ذات نزعة ثيولوجية ومنحى سياسى بأكثر من كونها أطروحة قانونية ... إذ هى محاولة لجعل الشريعة الإسلامية تجد تطبيقا لها فى عالمنا المعاش.

وفى لقاء جمعنى بالبروفيسور "كيغل" فى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ بكونونيا الألمانية، قال البروفيسور: "إن الأطروحة كانت جيدة، إذ كان بناؤها الفكرى بديعا" ... فى تذكره لأحداث مضى عليها نصف قرن من الزمان، إلا قليلا.

إلا أن بعضاً من تساؤلات وشكوك قد حامت بخلد البروفيسور بشأن تلميذه ... سعيد رمضان. فحين سألته عنه، جاءت الإجابة مقتضية موجزة: "يمكننى أن أصف رمضان بالذكاء، إلا أنه كان ذا هوس وجموح".

لقد كان رمضان يسعى لإرساء طويابوية دينية ... ضرب من مدينة فاضلة تتدثر بتعاليم الإسلام. ولم يكن "كيغل" يضمّر قليلا أو كثيرا لفئة "الطويابين"، إلا أن الطبيعة الاستيعادية الاستعلانية للفكرة لم تكن لتروق له ... تلك الفكرة التى مؤداها وجود دين واحد يسمو فوق كل ما عداه ... دين يتصدر المشهد بلا منازع. ومن المؤكد أن "كيغل" كان يؤمن بأن ذلك المنحى لهود دليل على التعصب وأماره من أمارات عدم التسامح. لقد كان "كيغل"، المولود فى السادس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩١٢، أكاديميا ناشئا يرقى أولى درجات السلم العلمى خلال سننى ما قبل الحرب الكونية الثانية ... وكان أستاذه الباحث والمنظر القانونى اليهودى الشهير، "ارنست رابل" - الذى هاجر عام ١٩٢٩ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قام "النازى" بجعل الحياة الأكاديمية ضربا من المستحيل لليهود. وهنا يتذكر "كيغل" أستاذه "رابل" قائلا: "إن رابل قد بقى طيلة حياتى متلى الأعلى

وقدوتى التى أخذو حذوها وأتلمس خطاها. لقد كان "رابل" ضحية من ضحايا الهوس البغيض، ذلك الأمر الذى لا أنساه العمر كله. أجل ... إننى أدرك ذاك الضرب من الهوس الذى أنفر منه على الدوام.

إلا أنه رغما عن مرارات قد استشعرها "كيغل"، وشكوك وهواجس أصابته ... فقد ظل هو وتلميذه "سعيد رمضان" صديقين، إذ حوت أوراق "كيغل"، الذى توفى فى السادس عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ - العديد من خطابات مرسله إليه بخط يد تلميذه ... خطابات أرسلها رمضان خلال تطوافه ببلدان العالم الإسلامى. كذا، فقد كتب "كيغل" توطئة لأطروحة رمضان - "التشريع الإسلامى ... أفاقه وموازن عدالته" - والتى نشرت فى عام ١٩٦١ ... تلك الأطروحة التى كانت الأوفر شهرة والأوسع ذيوعا من بين جميع ما أشرف عليه "كيغل" من أطروحات. واليوم، تعد الأطروحة ذلك النمط الشائع من الدراسات التى يصطبغ بها المشهد "الإسلامى". والأطروحة، التى كتبها سعيد رمضان بالإنكليزية، قد ترجمت إلى لغات عدة - حيث تشهد رواجاً بين أروقة المساجد والمراكز الثقافية على امتداد أوروبا بأسرها، وفى أى موضع قبض له أن يُخترق من قبل أيديولوجية "الجماعة" ... جماعة "الإخوان المسلمين".

إن كنيسة القديس بولس للروم الكاثوليك القريبة من المحطة الرئيسية لسكان حديد ميونيخ لتقف شاهدة على عصر انصرم ... كانت فيه أوروبا أكثر خشية لله. وقد ضمت الكنيسة - التى بنيت فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٢ و ١٩٠٦ - ستة آلاف عضو ينتظمهم عنصران فاعلان، هما السخاء والطموح ... أولئك الأعضاء الذين عهدوا بمهمة تشييد كنيستهم إلى مهندس نمساوى يدعى "غيورغ يوزيف فون هاوبرريسر" (١٨٤١-١٩٢٢)، وهو المهندس الذى شيد مبنى بلدية ميونيخ وفق الطراز القوطى الحديث، وذلك فى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٨٦٧ و ١٩٠٨. أما

الأعضاء، فقد طلبوا إلى "هاوبرريسر" بناء كنيسة تكون الأطول في المدينة أملا منهم في أن تعلق كاتدرائية السيدة العذراء للروم الكاثوليك - ذلك المعلم القروسطي الشهير الذي يقع وسط ميدان "مارين بلاتس"^{٨١}. هذا، وقد عكست كنيسة القديس بولس مظاهر الثقة والفخار التي باتت تسم ألمانيا الإمبريالية آنذاك. أما ارتفاع الكنيسة، فلم يزد عن ٩٦ مترا وفقا للتعاليم الأسقفية بما جعل كاتدرائية السيدة العذراء تحافظ على تفرداها كأعلى بناية بالمدينة. وفي أثناء الحرب الكونية الثانية، قصفت الكنيسة أثناء الغارات الجوية التي شنتها قوات الحلفاء على المدينة. ونظرا لضخامة جدرانها الحجرية، صمدت تلك الجدران في وجه موجات القصف، إلا أن القنابل قد اخترقت سقف الكنيسة، ودمرت محتوياتها الداخلية. وبحلول عام ١٩٥٨، كان قد تم إعادة بناء الكنيسة دونما كبير إسراف، بل وعلى نحو يثير الذكريات المؤلمة. هذا، وقد تم إحلال سقف الكنيسة ونوافذها، إلا أن إدارة الكنيسة قد ركنت إلى عدم إعادة ترميم الزخارف المنمقة، والتي كانت تزdan بها الكنيسة يوماً ما... إذ تم تزويدها - في المقابل - بتمائيل قد خلت من زينة، وبزجاج نوافذ غير ملون، فضلا عن قرמיד غير مصقول. لقد باتت كنيسة القديس بولس شاهدا على عنفوان الأيديولوجيا التدميري ... ذلك الذي ترك البلاد، وقد ضجرت من إيمان وتشككت في يقين.

لقد كانت كنيسة القديس بولس الوجهة التي قصدها أكثر من خمسين رجلاً في اليوم التالي للكريسماس عام ١٩٥٨. لقد بلغ الرجال مقصدهم عن طريق العربات، وكذا مترو الأنفاق رغما عن عاصفة ثلجية لفت المدينة ... مجتازين أراضي كانت ما تزال خاوية على عروشها آنذاك، وأطلال مبان شوهتها معارك الحرب الكونية الثانية. لقد اجتمع هؤلاء الرجال لا لتمجيد المسيح، بل للمشاركة في جهود "غرهارد فون منده" الرامية إلى توحيد صفوف مسلمي ألمانيا لبناء مسجد

لهم ... حيث حظيت "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين"، التي أوجدها "نور الدين نمقاني" بقبول واسع وازدادت شعبيتها بعد أن عمد "فون منده" إلى تنحية جماعة إبراهيم كوجا أوغلو" جانبا. إذا ... فقد كانت "إدارة نمقاني الدينية" تزعم كونها تمثل مسلمى ألمانيا كافة. أما دعوات الحضور، والتي تم طباعتها بالألمانية والتركية (بأحرف عربية)، فقد دعت ليس فقط إلى حضور "الجنود السابقين" فحسب، بل "الإخوة الآخرين من ألمان وباكستانيين وإيرانيين وعرب وأتراك ... ممن يحيون بميونخ، إذ إنه لزاما على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله تلبية نداء خالقه بالحضور أو بإبلاغ غيره من المسلمين، فالحاضر يبلغ الغائب". ولم تكن النبذة كذلك التي وسمت الكنيسة التي خضعت للترميم من اعتدال ورسالة ... بل كانت، بالمقابل، نبذة رؤيوية ذات عذاب ونذر" ... فالعالم قد يفنى بين عشية وضحاها، لذا فيجب ألا نحيا في دنيانا معصوبي الأعين. أجل ... لقد طال الرقاد وحان الأوان لننهض من رقدتنا تلك كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا".

هذا، وقد سبق الاجتماع جلسة مصغرة بتاريخ الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... جلسة ضمت أعضاء "إدارة نمقاني الدينية" الذين قرروا إرساء ما عرف "بلجنة بناء المسجد" "der Moscheebau Kommission"، برئاسة "نور الدين نمقاني"، فيما كان الموقر "سعيد شامل" الداغستاني رئيسا شرفيا لها. تلا ذلك بأربعة أيام التقاء الجمع تارة أخرى بحضور بعض طلاب ومسلمين آخر، حيث كان "سعيد رمضان" ضيف الشرف. هذا، ويتذكر "فضل يزداني" ذلك اليوم جيدا. فخلال لقائين جمعاني به في ميونخ في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥، والثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... أورد "يزداني" والذي كان لا يزال، آنذاك، طالبا بكلية الطب في العشرين من عمره - "أن الغرفة كانت ممثلة عن آخرها، وكان ذلك شعورا ممتعاً للغاية ...

لقد شعرنا بأننا ننهض بعمل مثالي جليل ... بناء بيت لله - مسجد كان لزاما أن يصير مسجداً لمسلمي ألمانيا كافة. ألا إن السعادة والحماسة قد غمرتا الحضور كله لوجود الدكتور سعيد رمضان بين ظهرانينا ... لقد كان شخصية جلييلة مهيبة، ذلك الفاضل الذي ترأس مؤتمر العالم الإسلامي. لقد ذاع صيت الرجل وطبقت شهرته الآفاق، وما هو اليوم يشاركنا جمعنا ماذا يد العون لإرساء لبناء المسجد المنشود.

أما سعيد رمضان فقد أدلى دلوه في تلك المعركة باستعراض "عضلاته" المالية ... إذ كانت حصيلة ما جمع الحضور من عطايا وهبات قد بلغت في ذلك اليوم ١١٢٥ مارك ألماني، تبرع رمضان - وحده - بألف منها. هذا، وقد اختير رمضان عضواً فخرياً "بلجنة بناء المسجد"، وكان قد دعى لحضور الاجتماع من قبل طالب سوري شاب يدعى "علي غالب محمود همت" - عضو جماعة "الإخوان المسلمين" في سوريا.

"لقد عمد همت إلى دعوة رمضان لأخذ زمام القيادة" ... هذا ما ذكره لي عبيد الله مجددي، الذي التقيته في ألمانيا في الأول من شباط/ فبراير ٢٠٠٥. وعبيد الله هو ابن الزعيم الأفغاني الشهير "صيفه الله مجددي". لقد كان عبيد الله - والذي كان يدرس الطب آنذاك - من ضمن حضور الاجتماع المذكور، كذا فقد كان قريباً من سعيد رمضان لسنوات قلائل ثلته ... إذ كان سكرتيره الشخصي. هذا، ويذكر مجددي أن "الهدف كان أن تتولى رئاسة لجنة بناء المسجد شخصية شهيرة".

فوفق ما استدعاه مجددي، فإن رمضان قد ذهب إلى القول بأنه توافق لبسط نفوذه على امتداد أوروبا. أجل ... لقد كانت جنيف هي قاعدته، ولكن ميونيخ، والتي

تبعد مسيرة يوم تقطعه العربة إلى الشمال الشرقي، لتعد قاعدة مثلى للانطلاق. لقد كان مجددي معجباً برمضان، بيد أنه - وعلى نحو ارتجاعي، أو ربما على طول الخط - كان يعانى وخز الضمير لجعل شخصية سياسية كسعيد رمضان تصعد إلى صدارة مشهد إدارة لجنة بناء المسجد.

واستطرد مجددي قائلا: إنه كان ضد اختياره للاضطلاع بالرئاسة، ولم يكن ضد شخص سعيد رمضان، بيد أن رمضان هو عضو بجماعة الإخوان المسلمين، وأحد زعمائها، كذا فهو رمز سياسى - فضلاً عن أنه رمز دينى أيضاً. لقد كان الرأى عندي، آنذاك، أنه ليس من الحصافة أن نوصم القلب بأنه مركز للإخوان المسلمين ... إنه ليتعين أن نعمل من أجل الإسلام، لا فى سبيل جماعة أو أخرى.

بيد أن سعيد رمضان كان شخصية كاريزماتية أسرة ... إذ كان الطلبة - أولئك الانطباعيون الذين تراوحت أعمارهم ما بين التاسعة عشرة والعشرين - يعتبرونه نجما ساطعا ... نجما يقود نهضة دينهم ذى المجد التليد والشرف الأثيل. لقد عمد رمضان إلى الوقوف فى وجه "كولونيالى" هنا و"ديكتاتور" هناك ... كذا، فقد قام هؤلاء الطلبة بدعمه كبطل يمثلهم.

أما محمد عبد الكريم (قريم)^{٨٢}، الألمانى الذى اعتنق الإسلام ليصبح ناشطا إسلاميا عتيدا، فقد ذكر لى، حين التقيته فى الحادى والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ بهامبورغ، أن "الطلبة جميعهم كانوا ذوى دراية واسعة وإطلاع غزير بالأمور الدينية وقضايا الإسلام، وخاصة تلك المرتبطة بجماعة "الإخوان المسلمين" ... لقد استوعبوا دروس حسن البنا استيعابا شاملا".

لقد أدرك سعيد رمضان أن عليه القيام بزيارة واجبة لفون منده اعترافا بفضله، إلا أنه كان لديه أمر آخر بات يشغله. لذا، فقد أناب عبيد الله مجددي للقيام بتلك

الزيارة المزمعة. وفي مقابلتي بمجدي، تذكر الرجل تلك الأحداث ليقول ضاحكا: "عقب الاجتماع، ذهبت إلى فون منده في دوسلدورف، وأخبرته عن الاجتماع ووقائعه ... إلا أنه قد تبدى أن كان يعلم الأمر برمته". إن مجدي لم يكن يدرك - آنذاك - أن نور الدين نمقاني كان "رجل" فون منده الذي كان يتابع الأحداث من كُتُب. إلا أن رمضان كان لغزا بذاته ... إذ سرعان ما شرع "فون منده" في تحري الأمر ... هل كان حليفا أم مناوئا؟ كذا، فسرعان ما كانت بيانات جديدة قد أخذت طريقها إلى ملف بطاقات "فون منده" الأنيقة: "سعيد رمضان، ٢٦ عاما، أحد قادة جماعة الإخوان المسلمين ... يقود سيارة كاديلاك أهدته إياها حكومة المملكة العربية السعودية".